ـ 8 ـ

إعادة ابتكار أمريكا من جديد

في خطاب القسم لولايته الأولى، قال الرئيس بيل كلينتون إن الوقت قد حان ل«رؤية [جديدة] وشجاعة ابتكار أمريكا من جديد»، وأضاف إن «على كل جيل من الأمريكيين تحديد ما يعنيه أن نكون أمريكيين». لكن في الخطبة ذاتها طمأن مواطنيه بأنه «لا يوجد خطأ في أمريكا لا يمكن علاجه بما هو صواب في أمريكا»[1].

ماذا عن إعادة ابتكار أمريكا؟ وكيف يتعامل مع الفكرة أمثالي من غير الأمريكيين؟ جزء من الجواب يكمن في أنني، أنا المواطن الألماني، أمريكي جزئيا أيضا. لا بالاختيار، بل نتيجة الحقيقة البسيطة التي تؤكد إن العالم الذي أعيش فيه يأخذ شكله غالبا بواسطة الولايات المتحدة، و«أسلوب الحياة الأمريكي»، والسياسات السياسية والاقتصادية والدولية التي صممت ونفذت في واشنطن. لذلك، يعنيني كأجنبي تصور ما يمكن/وما يجب أن تكون عليه أمريكا. بكلمات أخرى، أصبح مستقبل «مشروع أمريكا المسيحاني» مشروعا يؤثر في البشرية جمعاء. فهو يمثل الأمل للعديد من الناس في شتى أنحاء العالم؛ ويثير في الكثيرين غيرهم مشاعر الخوف والشك والارتياب.

أمريكا في المركز: ثلاث مقاربات

«المجتمع الدولي، الذي تحتل أمريكا مركزه، هو أعظم إبداع تاريخي غير مكتمل»[2]. هذه العبارة المذهلة صرح بها كاتب بارز في مجلة نيوزويك، إحدى أوسع المجلات المقروءة انتشارا في العالم. أنا على يقين أن قلة قليلة من الناس في العالم سيقولون اليوم: «إذا كان هذا المجتمع الدولي هو أعظم إبداع تاريخي، فإن التاريخ صانع هزيل!». لكن بغض النظر عن ذلك، هنالك الكثير من الحقيقة في هذه العبارة التي تفتتح الفصل الختامي «نحو إجماع جديد»، في كتاب مايكل هيرش «نحن في حرب مع أنفسنا» (2003). حيث يناقش دور الولايات المتحدة فيما يتعلق «ببقية بلدان العالم» في بداية القرن الحادي والعشرين. ووفقا لهذا الفهم، فإن الوضع يتسم بالمفارقة من عدة جوانب: قوة غير مسبوقة تعاني من مواطن ضعف غير مسبوقة. فعلى الرغم من هذا الجبروت العسكري الساحق، تبقى الولايات المتحدة جزءا من الشبكة العالمية للشعوب. وفي الحقيقة، فهي تقبع في المركز لأنها ببساطة أهم عامل سياسي واقتصادي وثقافي في العالم اليوم. وفي سبيل أداء هذا الدور بنجاح، يجب عليها الاهتمام بإيجاد الظروف الملائمة في شتى أرجاء العالم. بكلمات أخرى، على الولايات المتحدة العمل على ترسيخ القيم والحقوق ذاتها التي تحكم بها نفسها في أرجاء الأرض كافة. يقتبس هيرش من هنري كيسنجر قوله: «الاتجاه المهيمن على تفكير السياسة الخارجية الأمريكية يجب أن يتمثل في تحويل القوة إلى إجماع بحيث يرتكز النظام الدولي على الموافقة بدلا من الخضوع المتردد»[3].

من الواضح أن هيرش (صدر كتابه عام 2003) شعر بالقلق نتيجة استخدام «القوة العظمى» للولايات المتحدة لإنشاء إمبراطورية تحكم العالم

بالقوة الغاشمة وحدها. لكن ذلك سيكون خيانة للقيم والمثل العليا التي جعلت الولايات المتحدة القوة العالمية التي نعرفها اليوم. وسيكون أيضا خيانة للجهود العظيمة التي بذلتها لترسيخ القيم والقواعد الأساسية للمجتمع الدولي. هنا، يشير هيرش غالبا إلى الأمم المتحدة ومنظماتها الفرعية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أي مؤسسات بريتون وودز، إضافة إلى محكمة الجنايات الدولية في لاهاي. يجب على الولايات المتحدة أن تلتزم بناء هذا المجتمع الدولي وتعزيزه والمحافظة عليه لأنه نظام يوفر درجة عالية من الانفتاح والديمقراطية لشعوب العالم. فـ«الانفتاح والديمقراطية يحددان من نحن»(4).

يحاول هيرش عقد مصالحة بين النزعة الانعزالية الأمريكية التقليدية والنزعة العالمية الأمريكية التقليدية أيضا. ويقدم الحجة لمصلحة الهيمنة «الناعمة»، التي يوازنها دعم قوي وعنيد للبنى التي تديم وتعزز وتقوي التعاون الدولي. ولذلك، يريد من الولايات المتحدة أن تسهم بكل سخاء ـ بسخاء أكبر في الحقيقة من إسهاماتها حتى الآن ـ في ترسيخ ظروف عالمية عادلة وسلمية. لكن في الوقت ذاته، يجب على الأمة المحافظة على وضعها العسكري المتفوق بوصفها قوة عالمية حارسة. يتابع هيرش قائلا:

لقد أوجدنا، بقوة أكبر من ذي قبل، «مجتمعا دوليا متكاملا»؛ إذ توجد فعلا، مؤسسات دولية ورأي عام دولي، أكثر تجذرا وعمقا من أي وقت مضى، وهنالك أيضا، أجل، شيء يشبه الضمير الدولي. في هذه الظروف غير المسبوقة يكمن الأمل بأن تكون مزايا هذا المجتمع الدولي المتكامل، الذي توفر له القوة الأمريكية الحماية والأمن، أكثر إغراء من مزايا الحروب والفوضى والانسحاب من ذلك النظام(5).

أعتقد أن من السهل جدا رفض ودحض حجة هيرش بوصفها صوتا «ليبراليا» واهيا ضمن الجوقة الصاخبة لـ«المحافظين الجدد» المحتفين بـ«الإمبراطورية الأمريكية».

لكن المشكلة في كتاب هيرش تقع على مستوى آخر. إذ يبدو أنه يفترض أن قرار الولايات المتحدة وحدها هو الذي يحدد هل/ وكيف تريد أن تكون شريكا فاعلا في «المجتمع الدولي». ولم يشغل باله بالأسباب الداعية للاستياء الهائل والمنتشر على أوسع نطاق بين شعوب العالم من الولايات المتحدة. وهو يعطي الانطباع بأن تاريخ أمريكا الطويل من الذنب والعنف، إلى جانب التواريخ المعاكسة للأمم والمتخمة بالإذلال والمهانة والعجز المتضمنة في هذا المجتمع الدولي، يمكن تجاهله بكل سهولة. بكلمات أخرى ما زالت تبهم تفكيره المتعلق بدور أمريكا في العالم خرافة البراءة المسيحانية الأمريكية. أما الجانب الآخر المفقود برأيي فهو القضية البيئية. إذ لم يظهر هيرش أي اهتمام بدور الولايات المتحدة وتأثير أسلوبها في الحياة في وضع عالمي يهيمن عليه شبح الاحتباس الحراري، وتتقلص فيه الموارد الطبيعية، ويتنامى عدد السكان.

المقاربة الثانية التي أود استقصاءها تحمل نبرة مختلفة اختلافا بينا. يقول روبرت بيلاه، عالم الاجتماع البارز المتخصص في الدين المدني، الذي شخص مشكلات أمريكا بأكثر الأساليب إيجازا وبلاغة[6]: «أمريكا مركز لنوع جديد من الإمبراطورية، لكنها الإمبراطورية الوحيدة الموجودة. والأمريكيون، شاؤوا أم أبوا، مواطنون في تلك الإمبراطورية ومسؤولون عن العالم كله»[7]. ويتابع قائلا: «ردة فعلنا على الحادي عشر من سبتمبر تشير إلى أننا أبعد ما نكون عن الجاهزية لتحمل تلك المسؤولية»[8]. ويعرض

السبب لهذا الرأي في مقدمة كتاب عن الأساطير الأمريكية لريتشارد هيوز، ويتفق الاثنان على أن «أسطورة البراءة» هي التي تجعل دور القوة العالمية للولايات المتحدة منذرا بالخطر إلى هذا الحد:

> لم تكن لا مؤسستنا العسكرية ولا تدخلنا الاقتصادي في بلدان العالم يتسمان بالبراءة. ولم تعتقد أي إمبراطورية ظهرت في التاريخ ببراءتها. التواضع فيما يتعلق بمن نحن وماذا نستطيع أن نفعل أمر جوهري إذا ما أردنا تجنب العديد من الكوارث التي تنتظرنا[9].

هنا، تتبدى إشارة واضحة الدلالة على أن المفكرين الأمريكيين الكبار، من أمثال بيلاه وهيوز، يدركون ضرورة عكس أساطير أمريكا الرئيسة عكسا كاملا من أجل إعادة ابتكار رؤية جديدة للولايات المتحدة. كتاب ريتشارد هيوز ممارسة لما أدعوه بـ«التذكر العميق». وعندما يناقش الأساطير الأمريكية، يفسح مجالا لأولئك الذين عانوا ويلاتها. حيث يركز بؤرة اهتمامه على الأمريكيين الأفارقة (يمكنه أن يركز أيضا على سكان أمريكا الأصليين) ليظهر أن «أساطيرنا الأمريكية أبهمت وخربت أحيانا أركان وعد العقيدة الأمريكية المأمول، خصوصا للأقليات من السكان»[10]. وعبر عرض ردود أفعالها يأمل هيوز بالتلميح إلى التحفظات التي تشعر بها شعوب العالم فيما يتعلق بالقوة الخارقة الأمريكية.

ثالثا، أريد الإشارة إلى تصريح كتبه اللاهوتي الالماني يورغن مولتمان:

> باعتبار أمريكا شعبا يحكم نفسه بنفسه، فهي ما دعاه فرانكلين روزفلت التجربة الشجاعة والدائمة للعصر الغربي

الحديث. فهذا الكومنويلث الديمقراطي هو في الحقيقة ابتكار إنساني على حد تعبير بيل كلينتون.. الولايات المتحدة «أسست» عن سابق قصد وإصرار على ركيزة إعلان الاستقلال، والدستور، ووثيقة حقوق المواطنين. والحقوق المدنية الأمريكية مستمدة من حقوق الإنسان، وهي تشير إلى حقيقة أن «جميع البشر خلقوا أحرارا ومتساوين». في هذا السياق، تعد الولايات المتحدة بلدا، بل البلد الأول، لجميع البشر. وحقها ووعدها يمثلان كيانا سياسيا للبشرية مؤسسا على حقوق الإنسان للجميع دون استثناء، وهذا يتخطى الدول الوطنية، ويضمن السلام العالمي.

ومن ثم، ستبقى الولايات المتحدة كيانا غير منجز وغير مكتمل تاريخيا إلى أن تنجح أو تفشل هذه التجربة السياسية التي تختبرها البشرية على نفسها. وتظل الديمقراطية الأمريكية غير مكتملة طالما لم تكسب الديمقراطية العالم كله إلى صفها. وهذا ما يجعل هذه التجربة تجربة مسيحانية. فإن نجحت ستبدأ حقبة من السلام للجنس البشري؛ وإن فشلت فسوف يغرق عالم البشر في بحر من العنف والظلم والحرب ـ ولا ينطبق ذلك على عالم البشر وحده بل على عالم الطبيعة أيضا(11).

تعبر أفكار مولتمان عن انسحار بالرؤية التأسيسية للولايات المتحدة التي اجتذبت ملايين المهاجرين وأرشدت مسعى مختلف الجماعات في العالم لترسيخ حقوق الإنسان. لكنه واقعي أيضا بما يكفي لرؤية أن الحالة الراهنة للتجربة الأمريكية لا يمكن عولمتها لتشمل البشر كلهم: «سياسيا، لا تستطيع البشرية تحمل أكثر من أمريكا واحدة، والشيء ذاته يصح

بيئيا على الأرض. فإذا أصبح العالم كله أمريكا، فسوف يتعرض للدمار والخراب»[12]. يضيف مولتمان قائلا إن فكرة المسيحانية في حد ذاتها هي تسوية وتنازل من الألفية التاريخية التي ميزت الحلم الأمريكي. يقول مولتمان: «هنالك وعي بهذا الغموض المبهم في أمريكا، فبقدر ما يطارد الكابوس الأمريكي (مالكوم اكس) الحلم الأمريكي، ستظل الرؤيوية الأمريكية تسعى وراء المسيحانية الأمريكية»[13].

يصارع هيرش وبيلاه ومولتمان، كل بطريقته المختلفة، المفارقة المميزة للتجربة الأمريكية. فالكثيرون داخل الولايات المتحدة، إضافة إلى العديد غيرهم في شتى أنحاء العالم، يدركون حقيقة أن أداءها الفعلي لا يتصل بصورة كافية مع الرؤى التي عبرت عنها الوثائق التأسيسية. في القرون السابقة، رأى الناس أمريكا «عالما جديدا» يفصله عن العالم «القديم» محيطان، و«ملاذا شاسعا للحرية»، وملتزما تجربة ديمقراطية لم يشهدها العالم من قبل. لكن الولايات المتحدة الآن لم تعد ذاك العالم البديل؛ فهي تقبع وسط «القرية العالمية»، وتحيط بها بلدان العالم. هذا ما يعنيه ضمنا تعبير «المركز» الذي أشار إليه هيرش، ويدل على تغير في الصورة لا يجده العديد من مواطني الولايات المتحدة مريحا.

تعبير «المركز» يتضمن أن هناك عالما حوله، طرفا يحيط به؛ ويعبر هيرش وبيلاه ومولتمان كل بطريقته عن قلق عميق من الأسلوب الذي تتشكل فيه العلاقة بين المركز والأطراف. فنموذج الإمبراطورية الكلاسيكية يقوم على مركز يسرق الموارد من الأطراف. هذا ما فعلته روما ـ وما جعلها غنية ثم سبب انهيارها. وهذا ما تفعله الولايات المتحدة والدول الصناعية المتقدمة الأخرى في أوروبا وآسيا الآن. لذلك، يقدم الكتاب الثلاثة الحجة

لصالح نموذج يتقاسم فيه المركز الموارد مع الأطراف عبر مد وتوسيع أسلوبه الحياتي لتعتنقه الأسرة البشرية برمتها. هذا يعني، حسب تعبير مولتمان، أن تصبح التجربة الأمريكية «تجربة سياسية تختبرها البشرية على ذاتها». في حين يجب أن تصبح القيم والمثل المعلنة في الوثائق التأسيسية للولايات المتحدة القيم والمثل التي يتبناها الجميع. في التعبير المثالي، تصبح البشرية «أمريكا».

لا يقول مولتمان الكثير عن تكلفة هذا التغيير في النموذج (البارادايم). لكنه يشير إلى أن صورة المركز/ الأطراف يجب أن توسع لتشمل الواقع البيئي. فالمجتمع الدولي، الذي تحتل الولايات المتحدة مركز قوته، محاط هو أيضا بالمجتمع الطبيعي: وكوكب الأرض هو مساحته النهائية والمحددة. مع أن هذه الملاحظة واضحة ولا تحتاج إلى ذكر، إلا أن معظم الأمريكيين والأوروبيين مستمرون في إنكار هذه الحقيقة وفي العيش كأنما نملك عالما ثانيا موضوعا في مستودع في انتظارنا. لقد اعتدنا الظن أن عالمنا لا نهائي وموارده لا تستنزف إلى حد أننا لا نستطيع، ولن نستطيع، فهم الجدة الراديكالية لمأزقنا العالمي. يؤكد مولتمان هذه المعضلة بالقول إن التجربة الأمريكية متنافرة ومتناقضة مع طاقات الأرض وقدراتها على التحمل. ويبدو أن الإنسان الأمريكي غير مناسب للعمل ضمن حدود هذا العالم المحدد والمحدود الموارد. (أكرر القول إنني لا أقصد المواطنين الأمريكيين وحدهم، بل جميع الذين يتبعون «أسلوب الحياة الأمريكي» القائم على الاستهلاك المريح).

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا: ما نوع التغيير على النموذج البيئي الذي يجب على الإنسان الأمريكي إجراؤه لإيجاد كوكب يتمتع باستدامة بيئية؟

تبدو المسألة وكأنها تقنية؛ لكن لها في حالات عديدة تأثيرا مباشرا وكارثيا على حياة أطفالنا وأحفادنا. في خطاب القسم للولاية الأولى، أعلن بيل كلينتون أن «رحلة أمريكا البطولية الطويلة يجب أن تمضي قدما إلى الأبد»(14) فإذا كانت عبارة «قدما إلى الأبد» تعني تقدما لا محدودا نحو مزيد من الثراء المادي والقوة العسكرية، ففي المعنى سذاجة منذرة بالخطر. أخشى أن يلعن أحفادنا بعد خمسين سنة من الآن ـ إذا ظلوا أحياء ـ الإهمال والأنانية اللذين بددنا بسببهما، نحن الأمريكيون وأولئك الذين يعيشون في البلدان المحظوظة وتبنوا العادات الأمريكية، ميراثهم.

المسيحانية ومواطن الضعف

«إعادة ابتكار أمريكا»؟ يتطلب الحديث عن مثل هذه الفكرة تغييرا هائلا في النموذج (البراديم). اقتبست من هيرش وبيلاه ومولتمان، محاولا إظهار أن وضعنا في بداية القرن الحادي والعشرين يتسم بمستوى جديد من الضعف والانكشاف أمام الخطر العالمي. في الفصل السابق أوجزت الجوانب الأساسية الأربعة لمواطن الضعف تلك: 1) التهديد المستمر بالفناء الذاتي للبشر نتيجة الأسلحة النووية وإنتاج الطاقة الذرية؛ 2) التغير العالمي في المناخ؛ 3) التفاوت الصارخ والمتفاقم بين المناطق الغنية والفقيرة، الذي تزيد حدته الحروب على نهب الموارد الطبيعية الحيوية؛ 4) المواجهات المتصاعدة بين القوى العسكرية للدولة والجماعات «الإرهابية»الصغيرة، مع كل عواقبها وتبعاتها على معايير حقوق الإنسان.

يمكن ترتيب هذه المشكلات العالمية حسب نظام مختلف. وبرأيي إن هذه العوامل، أو أخرى تشبهها، تمكننا من فهم ما تعنيه مواطن الضعف

اليوم. فهي لا تصف واقعنا الوجودي فقط، أي ضعف أجسادنا وفناء كل جسم حي؛ بل تصف أيضا واقعنا الكوني، أي أن لكل نظام للحياة على الأرض نهاية لا بد آتية. اعتادت الأجيال السابقة قبول مواطن الضعف الفردية بوصفها أمرا محتوما يتعذر اجتنابه، لكنها شعرت بالارتياح نتيجة الاعتقاد أن الحياة نفسها منيعة وحصينة وسوف تستمر إلى الأبد. لكن على البشر اليوم التوافق مع حقيقة غير مسبوقة تشير إلى أن أشكال الحياة التي نعرفها كلها تتعرض لتهديد كارثة واسعة النطاق، إن لم يكن انقراضا كاملا لها. هذا هو السياق الذي يجعل من تأملاتنا حول تجربة أمريكا المسيحانية حاجة ملحة وضاغطة.

هل يعني ذلك أن هذا المشروع التاريخي قد انتهى؟ لا أظن. فكل شيء يعتمد طبعا على تكيف أمريكا مع الواقع الكوني ومواطن الضعف فيه، الذي أصبح سياقا شاملا للبشر أجمعين. ومثلما أظهر ريتشارد هيوز، يبقى الكثير من الأشياء المفيدة والثمينة في أساطير أمريكا التأسيسية، ويمكن تطويرها، بشرط أن تكون أمريكا مستعدة للاعتراف بحقيقة ضحاياها. هذه هي مقاربة التذكر العميق: عملية يفسح فيها المجال لجميع الشركاء، والرابحين والخاسرين لرواية قصصهم. ومن ثم يؤدي ذلك كله إلى خطاب جديد حول طبيعة القوة وواقع الذنب. وليس من الضروري أن ترتبط أسطورة البراءة بأسطورة الشعب المختار. وفي الحقيقة، لا يكتسب الاختيار عمقه إلا حين يكون قادرا على ضم الفشل والذنب ـ ومن ثم عامل التوبة. وحين تفهم القوة بهذه الطريقة، يمكن رؤيتها كتمكين للآخرين بدلا من حرمانهم مواهبهم ومواردهم لمصلحتنا. ومن ثم، تتخذ فكرة «النجاح» وجها جديدا: حيث يوجه نحو تحسين المجتمع وإلغاء متلازمة

الرابح - الخاسر. وهكذا، يصبح خاضعا لعلاقات عادلة ونزيهة بين أفراد المجتمع. لكن حين تكون «القوة على حق» لا يجد الضحايا ما يأملون به.

ينتمي التغيير والتوبة والتمكين والعدالة إلى سياق أضع فيه أيضا فكرة الحرية. فالحرية استقلالية سيادية يمارس فيها شخص أو جماعة أو أمة شؤونها. الحرية تأتي من الداخل ولا يمكن أن تعطى كهبة[15]. باختصار، يساعد السياق العالمي لمواطن الضعف الأمة الأمريكية على إعادة توجيه فكرتها عن المسيحانية. حيث لا تعينها على التخلص من التشويهات والتحريفات المسيحانية التي عرفناها في الفصول الأولى من هذا الكتاب فقط؛ بل الأهم أنها ترسخ علاقة جديدة بين رفاهية وخير وسعادة المجتمع الأوسع، «المحيط والأطراف»، و«رسالة» مراكزه. إن الإقرار بأننا كائنات ترتع بما وهبها الله من نعم، على الرغم من أننا بشر فانون، ونعيش في نظام عالمي عادل ورحيم، وإن يكن محدودا، يمكن أن يهدئ حدة الطاقات المسيحانية.

سياسة المصالحة - خيار أمريكي؟

في الفصل الخامس بدأت الحديث عن سياسة المصالحة، وأريد أن أتابع الموضوع في محاولة لاقتراح وجه آخر لمسعى أمريكا المسيحاني[16]. وحين استخدم تعبير «سياسة المصالحة» أتعمد جمع وموالفة المفهوم الديني عن المصالحة مع الفكرة العلمانية عن السياسة. في السياق الأوروبي، يحجم العديد من السياسيين والمستشارين السياسيين عن خلط الدين (بوصفه شيئا خاصا وشخصيا كما يزعمون) بالسياسة (بوصفها شأنا عاما وتعدديا بالضرورة). وهم يشيرون سلبا إلى جهود المسلمين لإخضاع

المؤسسات الديمقراطية إلى نظام ثيوقراطي، كما هي الحال في إيران. ويعدون تأثير الجماعات البروتستانتية المحافظة في المؤسسات السياسية الأمريكية قد تجاوز الحدود. من ناحية أخرى، أظهرت أعمال الشغب التي قام بها الشباب في العديد من المدن الفرنسية (خريف عام 2005)، أن الحكومة العلمانية، مثل الحكومة الفرنسية، لا تعرف كيف تتعامل مع تلك الشرائح السكانية ذات التقاليد الدينية القوية والمؤثرة (التقاليد الإسلامية في الحالة الفرنسية). في بعض الأمثلة، كانت المؤسسات الإسلامية هي التي قامت بتهدئة حدة الصراع.

على وجه العموم، يجب أن يتركز الجدل العام الذي يكون ويدعم المجتمع الديمقراطي على المسعى لإجراء حوار مكثف مع المتدينين. ما نحتاج إليه يتجاوز محو الأمية الدينية، أي حوار عام واع حول أهداف ورؤى ومثالب مختلف الجماعات الدينية. أعتقد أن تلك هي الطريقة الوحيدة لدمج إساهاماتها المحتملة ومنع المناورات التي تلجأ إليها جماعات التمثيل والضغط الدينية لاختطاف الأحزاب أو الحكومات الديمقراطية، أو حين يتجه التأثير في الاتجاه الآخر، وتختار الأحزاب السياسية بعض الجماعات الدينية المعينة كقاعدة شعبية لها في الحملات الانتخابية.

بعد أن نتذكر هذه التحفظات، أود اقتراح طرق يمكن عبرها لسياسة المصالحة أن تمثل أداة مفيدة لمقاربة الانقسامات السياسية العميقة و المتجذرة داخل/ وبين الأمم.

1ـ تسعى سياسة المصالحة إلى منع المواقف الاستفزازية والسلوكيات التصادمية. ونظرا لأنها تبدأ من القناعة بأن الآخر، العدو مثلا، ليس مختلفا عنا اختلافا جوهريا، لأننا جميعا بشر، فسوف تسعى

دوما لوصل العناصر وربط العوامل، خصوصا حين تختلف مواقف ومواقع «الآخر» اختلافا جذريا عن مواقفنا ومواقعنا. وهذا ينطبق على التعامل مع الجماعات الأصولية، على الرغم من مواقفها الهجومية والمتغطرسة. لهذا السبب، يصر الحاخام مارك غوبين، باحث السلام في جامعة جورج ماسون (في فيرفاكس بولاية فيرجينيا) على لقاء الأصوليين والتعامل معهم باحترام عميق[17]. إذ يجب أن نقدر إخلاصهم والتزامهم، كما يشعر، ونكون مستعدين لوضع إخلاصنا والتزامنا موضع التحدي. وكقاعدة عامة، تنطلق سياسة المصالحة من افتراض وجود هوية خلف الهويات المتصارعة للجماعات والأحزاب والشعوب. هذه هي هوية انتمائنا المشترك للجنس البشري، التي نختبرها في مواطن الضعف الموجودة في كل واحد منا. إن هذا الارتباط النهائي الذي يجمعنا كأعضاء في العائلة الإنسانية يمثل النقطة المرجعية لجميع الجهود الهادفة لتعزيز حقوق الإنسان. وحقيقة أن جميع البشر بحاجة إلى الحقوق التي لا يمكن التصرف بها نفسها تتضمن أنهم قادرون جوهريا على الحوار المتبادل والمصالحة فيما بينهم.

2ـ تأخذ سياسة المصالحة على محمل الجد حقيقة أن الذنب والعار جزء لا يتجزأ من طريقة تعامل الناس بعضهم مع بعض. فتواريخ القمع والإذلال متناسجة في حياة الأمم. وتشكل المادة الأساسية لأنماط الصراع المعياري والأحكام المتحيزة المسبقة. ومع ظهور صراعات جديدة، تنزع إلى الدخول في قوالب جامدة وفقا لبنى الصراعات التي انتهت منذ أمد بعيد. المثال المعبر في هذا السياق

يجسده الإطار المرجعي لتجربة «الحروب الصليبية». فعلى الرغم من أن الصراعات المعاصرة لا علاقة لها بالحروب الصليبية في القرون الوسطى، إلا أنها ما زالت توضع تحت ضوء التجارب المخزية القديمة. سرعان ما ينسى «الرابحون» لمعارك التاريخ الماضي؛ في حين تعلق في ذاكرة «الخاسرين». من هنا تظهر الحاجة إلى تطهير صراعات الماضي من دنسها، وتحمل وخزة ألم الجروح القديمة بواسطة التذكر العميق، والتعامل بأسلوب صريح مع ذكريات الماضي، التي تكمن دوما في انتظار الفرصة للوثوب والتأثير في خضم أي صراع ينشأ.

يمكن لهذا التذكر العميق المتبادل أن يكون بالغ الصعوبة، ويتطلب غالبا الكثير من الوقت والجهد. من الأمثلة على ذلك محاكمة مجرمي الحرب في نورمبرغ، وطوكيو (في أعقاب الحرب العالمية الثانية)؛ وبعد ذلك المحكمة التي انعقدت في لاهاي بعد حروب البلقان؛ ثم محكمة اروشا ردا على عمليات الإبادة الجماعية لقبيلة التوتسي على أيدي الهوتو غالبا. لهذه الجهود أهمية كبيرة، على الأقل لأنها ترسخ سيادة القانون، الذي يعد أعظم منجزات الحضارة في حياة البشر. لكنها لا تنجح في امتصاص السم من الجراح القديمة. وكقاعدة عامة، تستهدف هذه المحاكم الأطراف المذنبة ومعاقبتها على جرائمها؛ لكنها لا تحقق الكثير حين يتعلق الأمر بتعويض الضحايا واستعادة كرامتهم.

لذلك كله، هنالك طريقة إضافية تطور للبحث عن حقيقة جرائم الماضي وتسهيل المصالحة في آن معا. هذه هي مقاربة لجان «الحقيقة

والمصالحة»، الأداة التي استخدمت في أكثر من ثلاثين حالة لتسليط الضوء على انتهاكات حقوق الإنسان وإرهاب الدولة[18]. وما تشترك فيه هذه الجهود هو التأكيد على مصير الضحايا ومعاناة أقاربهم؛ لكن في معظم الحالات، كانت معاقبة الجلادين إما غير ممكنة سياسيا أو متعذرة عمليا. وعلى الرغم من هذه القيود، إلا أن مزيدا من اللجان ما زالت تشكل. وتثبت أن هناك وعيا متناميا لدى الناس في مختلف بلدان العالم بأن صراعات ومآسي ومشكلات الماضي التي لم تحل ليست سوى قنابل موقوتة خطرة. أما المزيج الانفجاري من الذنب والعار فيجب التصدي له بحيث يمكن للناس التحرر من إسار الشر الذي يقيدهم بالماضي ويشدهم إليه. ولا يمكن تحرير أو مصالحة الشعوب طالما لم تتحرر من قيود جراح الماضي التي لم تندمل.

لذلك، يمكن فهم سياسة المصالحة بوصفها جهدا واعيا لتطهير النفايات الخطرة المتخلفة عن مظالم الماضي وجرائمه. هذه المهمة يجب ألا توكل إلى بعض الجماعات التمثيلية أو الأقسام التاريخية، على الرغم من بعض العون الذي تقدمه في هذا السياق. بل يجب أن تعد مكونا حيويا من مكونات العلاقات الداخلية والدولية. بكلمات أخرى، إنها مهمة سياسية بامتياز، مع أن بعض السياسيين سيحاولون النأي بأنفسهم عنها.

3ـ حالما يوافق الشركاء السياسيون على المضي قدما بعملية التذكر العميق معا، عليهم التوافق مع العوامل الضرورية لمثل هذه العملية. إذ لا توجد طريقة لتجنب ضرورة الاعتذار. وعلى الجانب المسؤول عن مظالم ومآسي الماضي الموافقة على تقديم صورة تفصيلية

وشاملة عن الجرائم المرتكبة. أما الحقائق التي يجب كشفها فلها أربعة جوانب:

* يجب تسمية النشاط الإجرامي بوضوح والاعتراف به صراحة؛
* يجب كشف هذا النشاط الإجرامي بشكل محدد قدر الإمكان؛
* يجب التعبير بجلاء عن الندم على النشاط الإجرامي؛
* يجب توضيح الاستعداد لتقديم التعويضات[19].

من أهداف هذه العملية استعادة ما يمكن تسميته بـ«السيادة الأخلاقية» فيما يتعلق بجرائم وأضرار وجراح الماضي. فشرف ضحايا الجرائم واحترام الذات للمسؤولين عنها يجب استعادتهما بحيث يمكن للطرفين أن يلتقيا وجها لوجه. لذلك، لا تتعلق سياسة المصالحة أساسا بالتعويضات المالية؛ فهناك طرق عديدة للتعويضات يمكن التفاوض عليها. أما الهدف الرئيس فهو إقامة علاقة جديدة بين الأعداء السابقين مرتكزة على الثقة المتبادلة.

4- ليس من المفاجئ أن تتوقف عمليات سياسة المصالحة عند الخطوة الأولى غالبا، أي مرحلة الاعتذار. فهذه لحظة مؤلمة بالتأكيد: الاعتراف بالذنب عمل صعب ومرير دوما، وكثيرا ما يرفضه الناس والأحزاب السياسية المحاصرة في إسار إيديولوجية الرابح/ الخاسر. لست بحاجة إلى مناقشة هذا السؤال بتفصيل أكبر، لكن النقطة التي تعنيني هي: الاعتراف بالذنب إشارة دالة على السمو الأخلاقي والأمانة والصدق تعم فائدتها جميع الشعوب والأمم. نحتاج إلى

مزيد من «الرابحين» الذين يمتلكون ما يكفي من الاستقلالية والأمانة للاعتراف بسيئاتهم. ولسوء الحظ، فإن الاعتذار، خصوصا من الأحزاب السياسية، كثيرا ما يعادل الاعتراف بالهزيمة، ومن ثم يعد عملا جبانا. في حين تبقى سياسة المصالحة، من جهة أخرى، مدركة لحقيقة أن إعادة توطيد علاقات بناءة بعد سنين طويلة من الصراع أو الحرب أو انتهاكات حقوق الإنسان، تتطلب الإرادة للتوصل إلى تسويات. التسويات يجب أن تكون مشرفة بالتأكيد، لكن الاتفاقات يجب أن تشمل التخلي عن المواقف التي بدت سابقا غير قابلة للتفاوض. ومن الواضح أن مثل هذه المقاربة غير مقبولة لأصحاب الذهنيات المحاصرة بأسطورة البطل الخارق. فهي تتطلب نوعا مختلفا من البطولة، نوعا يعطي الأولوية لمصلحة وسعادة المجتمع الأوسع على المصالح الأنانية الضيقة.

5- حين ننظر إلى تحديات القرن الحادي والعشرين، لا تغدو سياسة المصالحة أكثر من مجرد سياسة واقعية وعملية. فقد تبدو المصالحة مغالية في المثالية أو حتى في الرومانسية، لكنها تنبثق من تقويم واقعي للوضع الإنساني العالمي. وهذا يتطلب فهما لحقيقة أن لسياسة المصالحة بعدا بيئيا. ومثلما ذكرت قبلا، تجبر مواطن الضعف التي نعانيها جميعا وتسم عصرنا الراهن البشر كلهم على البحث عن طرق للتعايش والتوافق تكون مفيدة ونزيهة وعادلة بقدر الإمكان. هذا العمل بحاجة إلى وضعه ضمن المنظور البيئي، لأن الكوكب الأرضي هو الذي يضع الحدود لكل ما نفعله نحن سكانه (على الرغم من جميع الأوهام الفانتازية الهروبية إلى الكواكب

الأخرى، على طراز «ستارتريك»). ومن ثم، يجب أن تتركز بؤرة اهتمام شعوب الأرض كلها على الحفاظ على هذه الأرض قابلة للسكنى والعيش. كيف يمكن عقد مصالحة توائم بين حاجات البشر وسلامة وظيفة النظام البيئي الذي نعيش فيه؟

يجب أن تتصدى لهذا السؤال بصورة رئيسة الأمم التي تجد نفسها في «المركز» لأنها السبب وراء العبء الأثقل على كاهل أمنا الأرض. لذلك يجب أن تجسد نموذجا يحتذى مثاله في هذا السياق. سيكون من غير الواقعي بالطبع الافتراض أن التفاوت الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الصارخ بين شعوب العالم يمكن إلغاؤه كلية. ويمكننا توقع ظهور مناسبات جديدة لاندلاع صراعات عنيفة. ومع ذلك، يجب أن يتمثل الهدف في إيجاد أنظمة من الأحياء السكنية المستدامة التي تستطيع البقاء ضمن الطاقات الاستيعابية لوطننا العالمي. يستتبع ذلك أننا، نحن سكان الكوكب الأرضي، بحاجة إلى تطوير مشاعر وطنية بالانتماء إلى الأرض تحظى بالأولوية على مشاعر الانتماء إلى الأوطان. أنظمة الأحياء السكنية المستدامة بحاجة إلى التمتع بقدر معين من الأمان والأمن. أما المؤسسة الرئيسة لضمان المعايير القانونية والاجتماعية المطلوبة فيجب أن تكون الأمم المتحدة، في حين توفر الولايات المتحدة القوى الكافية لأداء هذه المهمة.

6- هنالك الكثير مما تستطيع المؤسسات الدينية والمنظمات الإنسانية فعله لترويج وتشجيع أهداف وأساليب سياسة المصالحة. ولا يمكن التقليل من شأن المجتمع العلمي الدولي. وعلى العلماء من شتى بلدان العالم لعب أدوار مهمة في إشراك الناس من جميع مناطق العالم ومساعدتهم على تجاوز حواجز العرق والجنس والطبقة والدين المعتادة. أما المنظمات الأهلية (غير الحكومية) فهي التي تستطيع

تسهيل الحوارات، وتحضير الاعتذارات، وتطوير استراتيجيات التعويضات المحتملة[20]. والأهم أنها قادرة على بث الثقة حيث زرع المسؤولون الحكوميون الكراهية والفرقة. وهي القادرة على إظهار النيات الحسنة والانطلاق من بدايات صادقة ونزيهة في مواجهة جميع أولئك الذين تزدهر مصالحهم على الاستغلال والفساد.

مشورة النبي ميخا*

وجدت صعوبة في عرض جوانب ومقومات سياسة المصالحة هذه، لأن صوتا في داخلي يخبرني أن الأمر لا يستحق العناء، وأن الوقت قد فات، وأن القابعين في مراكز السيطرة والتحكم سوف يسخرون مني ويبعدوني عن المسرح. ومع أنني قلت لنفسي ـ اعتمادا على الوقائع العالمية ـ إن سياسة المصالحة أكثر منطقية من سياسة الرد العنيف التي نشهدها كل يوم، إلا أن الحالة السياسية الراهنة ظلت تلح علي بأن القوى الكبرى اليوم تقرأ الوقائع العالمية بطرق معكوسة. خصوصا أن القيادة الحالية للولايات المتحدة، القوة المركزية المحركة لشؤون العالم، مصممة على اتباع أجندة مختلفة اختلافا جذريا على ما يبدو[21].

إذن، إلى أين نتجه؟ لا أعتقد أن تحولا نحو سياسة المصالحة سيحدث في ظل الإدارة الأمريكية الحالية. ولا أظن أن من الممكن توقع أي اعتراف بذنب أمريكا التاريخي في المستقبل المنظور. فإغراء القوة الأمريكية المطلقة وشبه المقدسة كبير جدا إلى حد يمنع التفكير بمراجعة وتنقيح لإحساسها الأسطوري بالاستثنائية والفرادة. ولن تجري على الأرجح أي

* أحد أنبياء العبرانيين في القرن الثامن قبل الميلاد. (م)

محاولات لتغيير الأجزاء الجوهرية من المجمع العسكري ـ الصناعي وتحويله ليخدم الأغراض المدنية والإنسانية في وقت قريب. وفيما يتعلق بالقيادة السياسية في أوروبا، لا تمتلك أي أمة ما يكفي من القوة والشجاعة لتطوير رؤية بديلة. البديل يجب أن يأتي من داخل القوة العظمى، وأنا على يقين بأنه سيأتي.

فعاجلا أم آجلا ـ والأفضل عاجلا ـ سيضطر رئيس أمريكي، إلى جانب مجموعة من أبرز أعضاء الكونغرس، إلى القول: «نعبر عن أسفنا». سيكون الاعتذار معبرا عن السيادة والأمانة والاستقلالية ومتوافقا مع قوة أمريكا ودليلا يثبت عظمتها كأمة. وهذا سيعد المسرح ويعبد الطريق أمام أمم أخرى لتدخل في عمليات مشابهة؛ لأن العالم متخم بالجرائم المرتكبة منذ عهود وتنتظر التعويض عن أخطائها وأضرارها بالمصالحة.

في عام 1630، ألقى القس جون وينثروب من على ظهر السفينة «اربيلا» عظة بعنوان «نموذج للإحسان المسيحي». في هذا النص المحوري، حيث عد وينثروب الإحسان وعمل الخير من العوامل المطلوبة للميثاق مع الله، تحدث عن البركات والآلاء التي سيرتع فيها الناس حين يلتزمون الميثاق؛ لكنه أوضح دون لبس أيضا العقاب الذي سيحل بهم إذا أداروا ظهورهم له[22].

لكن كيف يتجنب الناس «جنوح السفينة» الذي أشار إليه؟ يستحضر وينثروب «مشورة ميخا»: العدل وحب الرحمة، والتواضع أمام الله (ميخا 6 : 8). كان وينثروب واحدا من أبرز الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وعرف أن «مشورة ميخا» أحد «الأصول الجوهرية» التي يجب على الناس

وحكوماتهم تذكرها دوما. فهي تشير إلى ثلاثة معايير فطرية وأساسية للقوة العادلة ـ العدل، والرحمة، والتواضع*. هذه المعايير الثلاثة ترشد استخدام القوة، وتعمل على احتواء إساءة استخدامها.

لربما يكون التواضع أصعب فضيلة تمارس عمليا، خصوصا للأمريكيين في الولايات المتحدة. ألم يخبرهم زعماؤهم مرارا وتكرارا أنهم الأعظم؟ ألم يدفعوا دفعا للاعتقاد أن قوتهم الخارقة مطلقة وكلية القدرة وأن عليهم ألا يخشوا شيئا؟ لذلك كله، يبدو أن التواضع يتعارض تعارضا جذريا مع رسالة أمريكا العالمية؛ وفي الحقيقة، تفوح منه رائحة الضعف والجبن. لكن العكس هو الصحيح. فكلمة تواضع / humility / جذرها لاتيني / humus/ ويعني «الأرض». التواضع هو الفضيلة التي تجعلنا قريبين إلى الأرض؛ وتحافظ على صدقنا وإخلاصنا لشرطنا الإنساني، ولجميع المخلوقات الحية التي تشاركنا العيش على هذه الأرض. لذلك، يحظى التواضع بأهمية قصوى، خصوصا لأولئك الذين وضعت قوة عظمى في عهدتهم. التواضع هو ترياق الفوضى المتأصلة في ما دعاه اليونان القدماء الغطرسة /hubris/، الغطرسة الاستكبارية للقوة التي لا بد أن تشكل بداية نهايتها.

---

* ولقد سبقهم ديننا الإسلامي الحنيف إلى ذلك بتوجيهاته السمحة.

هوامش

1- انظر:

Bill Clinton, «First Inaugural Address, January 21, 1993,» The Avalon Project at Yale Law School: http://www.yale.edu/lawweb/avalon/president/inaug/clinton.jtm (accessed Jan. 20, 2006).

2- Michael Hirsh, At War with Ourselves (Oxford/New York: Oxford University Press, 2003), p. 237.

3- Hirsh, At War, p. 239.

4- Hirsh, At War, p. 256.

5- Hirsh, At War, p. 257f.

6- انظر على وجه الخصوص:

Billah, The Broken Covenant: American Civil Religion in Time of Trial, 2nd ed. (Chicago/London: University of Chicago Press, 1992).

7- روبرت بيلاه في مقدمة لكتاب ريتشارد هيوز:

Myths America Lives By (Urbana and Chicago: University of Illinois Press, 2003), p. xi.

8- Hughes, Myths, p. xi.

9- Hughes, Myths, p. xii.

10- Hughes, Myths, p. 9.

11- Moltmann, Coming of God, p. 175.

12- Moltmann, Coming of God, p. 177.

13- Moltmann, Coming of God, p. 177.

14- Clinton «First Inaugural.»

15- يفسر ذلك ـ جزئيا ـ السبب وراء اختيار اسم «عملية الحرية العراقية» للحرب الاستباقية على العراق، ولماذا أفرزت مثل هذا الاستياء، خصوصا داخل العراق. إذ لم تكن تستهدف، كما نستطيع أن نرى حتى الآن، حرية العراقيين، بواسطة العراقيين، ومن أجل العراقيين (بالاستعارة من صيغة لينكولن المشهورة)، بل حرية الولايات المتحدة في تأمين مصالحها في العراق وفي الشرق الأوسط. وحين تعرض بوش للضغط لتقديم مسوغ للحرب بعد فشل عدد من الذرائع التبريرية التي قدمها، قال الرئيس إن الحرب شنت لجعل الولايات المتحدة أكثر أمانا.

16- اتبعت سياسة المصالحة على عدة مستويات في شتى أرجاء العالم. أود أن أعبر عن شكر خاص لفرق صنع السلام، خصوصا تلك التي استمدت إلهامها من كنائس السلام التاريخية (ما يزال حتى كتابة هذه الصفحات فريق صنع السلام المسيحي مفقودا في العراق منذ عام 2005). لقد قدمت جامعة ايسترن مينونايت في هاريسبرغ (بولاية فرجينيا) باحثين مقتدرين ومرافق تدريب ممتازة. هنالك وكالتان تستحقان الذكر من بين الوكالات الدولية المتصلة اتصالا مباشرا بجماعات المجتمع المدني والمشاركة في إجراء عمليات مصالحة مهمة: الشبكة الأفريقية لبناء السلام والمصالحة (في نيروبي، كينيا) بقيادة الباحث الإثيوبي هيزاكيا اسيفا؛ والمركز الأوروبي لتوقي الصراعات، بإدارة الباحث الهولندي بول فان تونغرين (في اوتريخت، هولندا).

17- انظر:

Marc Gopin, Between Eden and Armageddon: The Future of World Religions, Violence and Peacemaking (Oxford/New York: Oxford University Press, 2000), esp. pp. 199ff.

القابلة للتجديد. انظر:

Thomas L. Friedman, «New ‘Sputnik’ Challenge: The All Run on Oil,» New York Times, Jan. 20, 2006, p. A17.

22- John Winthrop, «A Modell of Christian Charity,»posted by Hanover College:

http://history.hanover.edu/texts/winthmod.html (accessed Jan. 29, 2006).

18- انظر:

Priscilla B. Hayner, Unspeakable Truth _ Confronting State Terror and Atrocity (New York/London: Routledge, 2001); see also United States Institute for Peace Library, «Truth Commission's Digital Collection,» United States Institute of Peace:

http://www.usip.org/library/truthhtml (accessed Jan. 20, 2006).

انظر أيضاً تقييمي للجنة جنوب إفريقية للحقيقة والمصالحة في كتابي:

The Art of Forgiveness, pp. 85 - 101.

19- انظر:

Aaron Lazare, On Apology (London/New York: Oxford University Press, 2004).

يذكر لازار أيضا أربعة مكونات في عملية المصالحة: 1) الاعتراف بالانتهاك؛ 2) نقل مشاعر الندم والمواقف ذات الصلة بالصبر والتحمل والإخلاص والصدق والأمانة؛ 3) التفسير؛ 4) التعويض.

20- للاطلاع على مثال معبر عن وفرة البرامج التي يمكن تشجيعها عبر الشبكات الدولية لفعاليات المجتمع المدني، انظر:

Paul Van Tongeren, Malion Brenk, Marte Hellema, Juliette Verhoeven, eds., People Building Peace II: Successful Stories of Civil Society (Boulder/London: Lynne Rienner Publishers, 2005).

21- شعرت بالارتياح يأتي من أمكنة لم أتوقعها قط. إذ يؤكد توماس فريدمان بحماس متعاظم على وجود تغير وتبدل في النموذج (البراديم)، يبتعد عن اقتصاد مرتكز على النفط ويقترب من اقتصاد يركز على واردات الطاقة